مطلوباتُ درءِ مخاطرِ التفككِ والانقسامِ في العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ

عبد الرحمن محمد سوار الذهب(*)

الإسلامُ دينٌ يدعو إلىٰ السَّلامِ وَفقَ منهجِ ومبادئِ ونصوصِ القرآنِ الكريمِ، الَّتي تؤكِّدُ ضرورةَ التَّواصلِ السِّلميِّ مع غيرِ المسلمِينَ، لقد شهدتْ دولةُ الرَّسولِ صلىٰ الله عليه وسلم تواصلًا مع غيرِ المسلمِينَ، ورفضتِ الغلوَّ والتَّطرُّفَ، وما نشاهدُه من معاداةِ غيرِ المسلمِينَ لا يُمثِّلُ الإسلامَ في شيءٍ، وهناك شواهدُ علىٰ إنسانيَّةِ الإسلامِ مع أهلِ الكتابِ: مطلوباتُ درءِ مخاطرِ التفككِ والانقسامِ في العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ

أوَّلًا: بناءُ المنظومةِ الاجتماعيَّةِ للأمَّةِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ:

١- تعضيدُ أواصرِ الإخاءِ، والتَّصالحُ بين المجتمعاتِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ:

لمواجهةِ التَّحدياتِ الماثلةِ لا بدَّ من مدِّ جسورِ الثِّقةِ، وتحقيقِ الإخاءِ بين المجتمعاتِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ؛ فالإخاءُ من المبادئِ الإنسانيَّةِ الَّتي يرعاها الإسلامُ، يقول اللهُ تعالىٰ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (13) [الحجرات: ١٣].

٢- إزالةُ الفوارقِ الطَّبَقيَّةِ وتحقيقُ المساواةِ:

لبناءِ أمَّةٍ متماسكةٍ موحَّدةٍ لا بدَّ من تحقيقِ المساواةِ؛ فهي من القِيَمِ والمبادئِ الإنسانيَّةِ الَّتي اهتمَّتْ بها الدَّعوةُ الإسلاميَّةُ؛ لِتَرسُمَ قاعدةً إنسانيَّةً ينطلقُ منها البَشَرُ، حيثُ اهتمَّتِ الدَّعوةُ الإسلاميَّةُ بالمساواةِ بين البَشَرِ بلا تفرقةٍ عنصريَّةٍ بين النَّاسِ، حيثُ لا فرقَ بين الأسودِ والأبيضِ، ولا فرقَ بين الغنيِّ والفقيرِ، ولا فرقَ بين الرَّاعي والرَّعيَّةِ، والكلُّ سواسيةٌ كأسنانِ المُشطِ الواحدِ، بل مصدرُ التَّفاضلِ هو معيارُ التَّقوىٰ الَّتي تتضاءلُ أمامَها سائرُ المظاهرِ الماديَّةِ الأخرىٰ.

وقد حَرَصَ الإسلامُ علىٰ انتزاعِ مظاهرِ التَّفاوتِ هذه بشتَّىٰ الوسائلِ والأساليبِ، وحتَّىٰ الأثرياء الَّذين يودُّون أن يتميَّزوا عن سواهم، وفي مسائلَ خاصَّةٍ كالنِّكاحِ، فقد لَفَتَ الشَّرعُ انتباهَهم إلىٰ ضحالةِ ما ذهبوا إليه: **وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**(32) [النور: ٣٢].

فإنْ كان سببُ التَّفاوتِ وعدمِ المساواةِ هو المالَ؛ فإنَّ اللهَ قادرٌ علىٰ أن يُغنيَ هؤلاءِ الفقراءَ من فضلِه، فلماذا يُعَدُّ سببًا للتَّعالي وعدمِ المساواةِ؟ ولِمَ كان امتهانُ كرامةِ النَّاسِ سببًا في عدمِ معرفةِ حقيقةِ هذه المساواةِ؟

٣- الدَّعوةُ إلىٰ التَّراحُمِ والتَّكافُلِ الاجتماعيِّ:

اهتمَّ الإسلامُ بالتَّكافلِ؛ فالتَّكافلُ الاجتماعيُّ مبدأٌ إنسانيٌّ أصيلٌ، ومن المبادئِ الإسلاميَّةِ الَّتي يُركِّزُ عليها في تكوينِ المجتمعِ؛ ولذلك نجدُ أنَّ البناءَ الاجتماعيَّ الإسلاميَّ يختلفُ عن سواه، فالتَّكافلُ الاجتماعيُّ أحدُ مقوِّماتِ العدالةِ

الاجتماعيَّةِ الَّتي يعتمدُ عليها الإسلامُ؛ فالإسلامُ يُقرِّرُ مبدأَ التَّكافلِ الاجتماعيِّ في كلِّ صورِه وأشكالِه؛ فهناك التَّكافلُ بين الفردِ وأُسرتِه، وبين الفردِ والجماعةِ، وبين الأمَّةِ والأممِ، وبين الجيلِ والأجيالِ المتعاقبةِ».

قال تعالى: **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**(114) [النساء: ١١٤]، كلُّ هذه ضماناتٌ لإيجادِ مجتمعٍ متعاونٍ تسودُه القِيَمُ الإنسانيَّةُ والفضيلةُ، وذلك عندما تَسُودُ رُوحُ التَّعاونِ والتَّكافلِ بين أفرادِ المجتمعِ المسلمِ.

المبادئُ الإسلاميةُ في تعزيزِ الوَحدةِ الوطنيَّةِ وتحقيقِ السِّلمِ الإنسانيِّ:

أولًا: حُرِّيَّةُ العقيدةِ:

من القضايا المعاصرةِ الَّتي تُثارُ الآن: ما يُعرَفُ بالحرِّيَّةِ الدِّينيَّةِ، إنَّ من أوضحِ النُّصوصِ القرآنيَّةِ دَلالةً على حرِّيَّةِ الاعتقادِ في الإسلامِ، قولَه تعالى: **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)** [الكهف: ٢٩].

وقولَه تعالى: **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**(20) [آل عمران: ٢٠].

فمَهمَّةُ الرَّسولِ هنا محصورةٌ في التَّذكيرِ، لا تتعدَّاها إلى أيِّ أمرٍ آخَرَ.

ثانيًا: تعزيزُ التَّواصلِ مع أهلِ الكتابِ:

حرصًا من الإسلامِ على أن تسيرَ الحياةُ سَلِسةً بين الأقلِّيَّاتِ غيرِ المسلِمةِ، فقد جاءَ في تشريعاتِه المُحكمةِ ضرورةُ إزالةِ الحواجزِ معهم، يقولُ اللهُ تعالى عن أهلِ الكتابِ وضرورةِ حسنِ الصِّلةِ بهم: **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٥)[المائدة: ٥].

فقد أباحَ اللهُ في هذه الآيةِ للمسلمِينَ طعامَ الَّذين أُوتوا الكتابَ، وفي المقابلِ طعامَ المسلمينَ لأهلِ الكتابِ، كما جعلَ الزَّواجَ منهم جائزًا، وليس هناك عَلاقةٌ أقوى من الزَّواجِ ولا أسمى، فعَلاقةُ الزَّواجِ والمصاهرةِ هي من أمتنِ الرَّوابطِ الَّتي تجمعُ بين الزَّوجينِ من ناحيةٍ، وبين الأُسَرِ المتصاهرةِ؛ لِيُصبِحَ الإسلامُ بذلك أنموذجًا إنسانيًّا لاندماجِ الوشائجِ الإنسانيَّةِ، كما أَمَرَنا بالتَّسامحِ معهم حتَّى في الجدالِ: **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾** [العنكبوت: ٤٦].

كما يأمُرنا الإسلامُ بالعدلِ معهم وحُسنِ الصِّلةِ بهم: **لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**(8) [الممتحنة: ٨].

جاء في تفسيرِ «الجامعِ لأحكامِ القرآن» لهذه الآيةِ: «لا ينهاكمُ اللهُ عن أن تَبرُّوا الَّذين لم يقاتلوكم -وهم خُزاعة- وتُعطوهم من أموالِكم على وَجهِ الصِّلةِ وليس العدلَ، فإنَّ العدلَ واجبٌ فيمن قاتلَ وفيمن لم يُقاتِل.. قاله ابنُ العربيِّ»(*).

التَّوصياتُ:

١ - على علماءِ الأمَّةِ بيانُ أنَّ الإسلامَ دينُ سلامٍ.

٢ - توعيةُ المسلمِينَ بأنَّ سلوكَ المتطرِّفينَ لا يُعبِّرُ عن الإسلامِ.

٣ - تخصيصُ قناةٍ فضائيَّةٍ وموقعٍ إلكترونيٍّ يُعنَى ببيانِ دعوةِ الإسلامِ السِّلميَّةِ.

٤ - ترجمةُ مبادئِ الإسلامِ ومناهجِه في السَّلامِ إلى عدَّةِ لغاتٍ عالَميةٍ.

٥ - إبرازُ الوجهِ الحضاريِّ للإسلامِ وتعايُشِهِ مع غيرِ المسلمِينَ عبرَ امتدادِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ.